قصة قصيرة

زيارة سرية

عاطف الغمري

رفعت عيني من فوق الصحف التي رصت امامي على مكتبي ، وأنا اسمع همسا . حانت مني التفاتة الى الباب المفتوح في مواجهتي على الحديقة الغارقة في ظلام دامس . ظهر رأسان لشخصين على السلم ذي الدرجات السبع المؤدي الى باب حجرتي . ركزت بصري عليهما وأنا أتحرر من تأثير ضوء الاباجورة الذي يخطف العين فلا ترى ما في الحجرة المحدودة المساحة التي أطفىء ضوءها .

أحدقت بعيني أنصاف دوائر تحيط بالشبحين ، اللذين امتزج لون ثيابهما الداكنة بلون الظلمة . تمليت ملامحهما وهي تتجسد ، بينما يكملان صعود الدرجات القليلة الى مدخل الحجرة . ضاقت حدقتا عيني لتستوعبا ما أرى . لمحت رجلا وامرأة في سن متقاربة، لا يتجاوزان الخمسين .. جمدا في مكانهما كتمثالين من الشمع . لا تكاد ملامحهما توحي بتباين. وجه الرجل شاحب بارز العظام ، تهدلت على وجهه الطويل خصلة من شعره الاسود الغزير ، الذي تتخلله شعيرات بيضاء . عوده النحيل غارق في قميص أزرق داكن ، وبنطلون من نفس اللون . تكاد المرأة . وهي أكثر بدانة ، تكون قد سلبت الرجل ملامحه .. تتلصص نظرات عينيها المريبة في أركان الحجرة . وبدت وكأن ثوبها قد صنع من نفس ثياب الرجل .

لبثنا صامتين ، وأنا أقتلع نفسي من عالم ، حلقت بي فيه أحلامي مع جائزة الدولة التقديرية التي اتفقت صحف الصباح على انني في مقدمة المرشحين لها . احتجت لمجهود نفسي شاق لأنتزع فكري عن الفضاء الذي أحلق فيه بلا أجنحة .

كان الجو من حولي يتيح لي استغراقا لانهائيا في أحلامي . فالبيت الكائن في ضاحية المعادي مغلف بالظلام من الخارج . ونسمات محملة بأريج الياسمين تتسرب من باب حجرة المكتب المفتوح على الحديقة ، تزيل عني الاحساس بحرارة شهر اغسطس ورطوبته . واشجار اللارنج في الخارج تتمايل رؤوسها بعد أن شملت من آمالي وأحلامي التي فاضت حتى غطت على الدنيا من حولي . ولا أحد يقطع عليّ خلوتي المرغوبة . فزوجتي سهير خرجت تشتري رابطة عنق جديدة ، أرتديها في حفل تسليمي الجائزة . وابني كمال غادر البيت متهللا على غير عادته هذه الايام ، بعد أن وقعت المعجزة ، وخصّ نفسه بنصيب الاسد من قيمة الجائزة ، حلا لمشاكل الزواج والمهر . ولم يفت ابنتي مها أن تحتفل مع خطيبها باختصار سنوات من عمر استعدادها للزفاف ، بعد أن تبقى لها ألف جنيه من الخمسة آلاف ، تشتري بها ما تبقى من الضروريات من أثاث بيتها الجديد ... مواقف يتيه فيها المرء مع أحلامه .

كانت الصحف التي كومتها بنظام أمامي ، وأخذت أتصفحها المرة تلو المرة ، تتبارى في عرض مبررات ترشيحي للجائزة ... اسم سليمان الدري صار قرينا للعدالة .. كانت العدالة عنده حبلا مشدودا يمشي عليه دون أن تزلّ قدماه .. حتى في أكثر القضايا حساسية وفي أشد الظروف السياسية تعقيدا ، كانت أحكامه تصدر بوحي من ضمير القاضي ، غير عابىء بأي ضغوط .. القضاة يحكمون بالقانون نصا ، لكن القانون عنده كان نصا وروحا والهاما .

وبصعوبة شديدة نزعت نفسي من استغراقي فيما كتبته الصحف ، لأتحقق من زواري .. وبادرني الرجل بنبرات خافتة :

ـ مساء الخير يا أستاذ سليمان .

أجبته وأنا أرمقه بنظرة متفحصة :

ـ مساء الخير .

حلّ صمت قصير قطعه بنفس نبراته :

ـ جئنا نعرض عليك قضية .

قلت وأنا أشير اليهما بالجلوس على الاريكة

المواجهة للمكتب ، لصق الحائط ، والتي ينتهي طرفها عند حافة الباب الذي دخلا منه :

ـ تفضلا .

جلس الاثنان متجاورين . مرت فترة صمت ، راح الرجل أثناءها يدق الارض دقات خفيفة بحذائه الاسود المفلطح العريض . تبادل الرجل والمرأة النظرات. هزت المرأة رأسها باشارة منها تشجعه على الكلام . نطق الرجل بأول جملة :

ـ تذكر ، بالطبع ، قضية عبد الغفار عواد ..

لطمتني عباراته . تدحرجت بغير ارادة في جوف الماضي . ناديت ارادتي للسيطرة على فوران انفعالاتي . ولم أعطه جوابا .

واصل الرجل اقتحامه لذكرياتي التي كانت قد غابت حتى عن ادراكي ، وقال :

ـ كنت القاضي الذي نظر قضيته منذ ٣٠ عاما . وحكمت باعدامه ، ومصادرة أملاكه .

ارتجف قلبي بعنف . نبش الرجل ذكرياتي بلسانه الحاد . جعل الذكريات تفيق بعد غفوة طويلة ، خلتها أبدية . استجمعت فكري وتمتمت :

ـ أذكره .

اكتفيت بهذه الملاحظة انتظارا لما يفصح به . قال مشيرا بذراعه نحو المرأة :

ـ كنا ، زوجتي وأنا ، شاهدي الاثبات الوحيدين في القضية . بالطبع سيادتك لا تتذكر اسمي .. عدوي الشوادفي ، وزوجتي شهيرة طلحة . لم نكن وقتها قد تزوجنا .

صمت الرجل ، فقطعت الصمت قائلا :

ـ في الحقيقة لا أذكر .

علا صوته قليلا وهو يخرج عن نبراته الخافتة :

ـ جئنا نعترف لك بأن التهمة كانت ملفقة . كنا نعمل خادمين في فيللته بالدقي . بعد القبض عليه جاءنا شخصان كل منهما في حجم فيل ، أمليا علينا الشهادة . وهددانا بالعقاب اذا رفضنا تمثيل دور شاهدي الاثبات .

مددت بصري الى الحديقة ، أناشد النسمات التي تمنعت . لاح الظلام موحشا . تلفتت ناحيته . لمحته يتفحصني باهتمام أثار قلقي . وجدتني أغوص في مقعدي الجلدي . رميت اليه بسؤال :

ـ ولماذا جئتما اليوم تقولان هذا الكلام ؟

عاد صوته الى خفوته لكن باصرار :

ـ ليس لسبب سوى ان كلانا أراد أن يزيح عن قلبه حملا ثقيلا ناء به . حملتنا اليك رغبة جارفة في الاعتراف بما ارتكبناه . تذكرنا شخصك الكريم ونحن نقرأ خبر ترشيحك لجائزة الدولة في العدالة . فتحت الذكريات أبواب الجحيم على ضمائرنا . قلنا نأتي اليك نبوح بما اختزناه في قلوبنا ، لعلنا نستريح .

ـ وما الفائدة الآن ، بعد أن طوى الرجل التراب ؟

اندفعت المرأة بعد صمت تشارك بنصيبها في الحديث :

ـ عبد الغفار عواد مات . لكن ولديه على قيد الحياة .

تلقيت المفاجأة صاغرا ، فلم أكن أعرف ان للرجل أبناء . لاحت لأول مرة ابتسامة متعثرة على منحدرات وجه « عدوي » النافرة عظامه ، وقال :

ـ مالنا ومال ولديه . صحيح انهما تركا الدراسة، بعد أن تعذر عليهما الاستمرار فيها لمصادرة أموال أبيهما ، وذاقا مرارة الفقر بعد ثراء ، وتقلبا في مختلف صنوف العمل اليدوي ، لينفقا على أمهما التي صرعها المرض بعد الصدمة .. لكن هذا قدرهما .

وبسرعة التقطت شهيرة طرف الخيط من عدوي وقالت :

ـ صحيح . هذا قدرهما .

ـ ولد وابنة وزوجة مريضة ! من تكون زوجته اذن ؟

طالعت المرأة التساؤل في عينيّ الزائغتين ، فتطوعت بالجواب :

ـ عبد الغفار بك تزوج السيدة احلام .. الراقصة . وقد تفرغت للبيت ، وانجبت له ناهد وهشام .

تلقيت الضربة القاضية فترنحت. تقصفت الاجنحة التي حلقت بي في فضاء الحفل والجائزة والعدالة التي اقترنت باسم سليمان الدري . انغرس شعور بالذنب في قلبي ، ونزفت قواي . تحاملت على كياني المجهد ، ونهضت واقفا . لبثت مكاني هنيهة أغوص بعيني في الظلمة المتغشية في الحديقة . مضيت دون أن ألتفت اليهما ، نحو طرف أريكة على الناحية الاخرى من الباب، وارتميت في اعياء .

هبّ الاثنان للانصراف ، حرص الرجل على أن يقول :

ـ مبروك الترشيح للجائزة . حلال عليك الخمسة آلاف جنيه . الله لا ينسى الناس الطيبين ، في أيام كلها عسر .

استطرد « عدوي » وأنا ألملم نثار كلماته التي تطن في أذني :

ـ اطمئن ، لن نبوح بالسر لأحد . وان شاء الله سوف نتصل بك مرة أخرى لنهنئك بالجائزة .

نفذ الرجل والمرأة من باب الحجرة . تلاشى الاثنان في ظلام الحديقة . طرحت رأسي على مسند الاريكة . أغمضت عينيّ وأخذت الدوامة تطوح بي .

لم أعرف كم من الوقت استغرقتني الافكار ، وانا تائه تتجاذبني مختلف الاحتمالات ، أرثي لحالي عندما تطالعني الصحف بهذه الواقعة التي تقتلع جذور الاساس الذي أقيمت عليه مبررات ترشيحي للجائزة ، واتحسر على مها وكمال ، وقد تهاوت آمالهما الشاهقة وتساقطت انقاضها على راسيهما . وكيف ستتقبل سهير الصدمة ؟

انسحب من الترشيح ، والا اكتسحتك الفضيحة. وتخسر الاثنتان : الجائزة وسمعتك . هكذا كنت وانا مخدر بنشوة الحلم ، أخاطب عقلي حتى لا تجرفني أحلامي الى هاوية بلا قرار .

لكن الترشيح شق" لأسرتي الصغيرة طريقا ، عبر جدار مسدود ، لا أملك وحدي أن أسده من جديد. فكمال تراجع عن قرار بالهجرة ، هربا من عجزه عن الاحتفاظ بحبيبة صباه « نهال » زميلته في الجامعة ، وهو يشهدها توشك أن تنتزع منه ، ليتزوجها شاب قادر على أن يقدم لاهلها ما لا يستطيع هو أن يقدمه . ومها وجدت حلا ، لمشكلة العثور على الف جنيه تستكمل بها ما تبقى من أثاث شقتها التي تؤثثها مع خطيبها . وسهير ، برئت من الم مكتوم ، ببقاء ابنها معها ، وخروج ابنتها من ورطة لا تملك هي القدرة على اخراجها منها . ولم أكن قد استطعت طوال حياتي الوظيفية أن أدخر نقودا . ولما جاءنا خبر الترشيح ، شعرت انها جاءت عوضا عن بعض مما لم أقدر على توفيره لهم ، وتبريرا مني لاستقامتي في عملي .

والآن ، أجد كل هذا البناء مهدد بالسقوط .

افقت على يد تهزني من كتفي . سحبت راسي من تحت ركام الافكار بصعوبة . رفعت بصري فوجدت سهير . افشت ملامحي بحالي . استجوبتني فقصصت عليها ما جرى . انصتت الي" دون مقاطعة حتى انتهيت ، فقالت مبتسمة :

ـ محض خيال . لم يحضر أحد لزيارتك . يحدث ذلك لمن يتميز بحساسية مفرطة أو لمن هو مقبل على حدث جلل .

قلت في اصرار :

ـ بل حقيقة .

ـ أنت واهم . يقول المثل : « من يخاف العفريت يطلع له .. » وانت من فرط شعورك بأحقيتك بالتكريم، وخوفك من أن تذهب الجائزة لغيرك ، صور لك خيالك ما رويته لي .

حاولت أن اقنع نفسي بصدق رايها ، لكن قلبي كان قد احتواه الشك ، وعششت خيوط من الماضي على منافذ الحاضر ففشت عيني" سحابة ثقيلة . أسدى الي" العقل بنصيحة : كف عن النظر وراءك في خوف . والتمع في ذهني خاطر مفاجيء . تذكرت ان الرجل كان يدخن وهو جالس في مواجهتي . هرعت الى المنضدة . انحنيت عليها بكل جسدي . التصقت نظراتي ببقايا سيجارة . التقطتها بأصابعي . قربتها من عيني سهير ، أشير الى حروف دقيقة تحمل نوع السيجارة ، نوع لم أتعود تدخينه .. تنبهت سهير الى مقصدي فأسرعت تقطع الشك باليقين قائلة :

ـ بالقطع .. دخنها أحد زوارك .

ـ لم يحضر أحد اليوم لزيارتي ..

ـ ربما أمس .. وربما قبل أيام .

انسحبت سهير من الحجرة ، وتركتني لظنوني . عدت الى عقلي أحاوره ، وسألته متوسلا :

ـ هل ما جرى كان من صنع خيالي ؟

لكن العقل خذلني بصمته . كبلته حبال مجدولة من ماض قديم . أطلقت نظرة عبر الباب ، فأبصرت أضواء النوافذ البعيدة ، تنفرج عنها رؤوس الاشجار المتأرجحة ، من لفحة هواء مفاجئة . تقاذفتني خواطري. شعرت بنفسي أهرع الى الحديقة ، استكشف اثرا للزيارة . عثرت في نهاية السلم على آثار لحذاء مفاطح عريض ، تجاوره آثار حذاء نسائي ، ينتهيان عند الباب الخارجي .

هل تطبع أوهامنا آثارا على الارض ؟.. أثقلت الظنون رأسي فعدت الى الحجرة أرتمي على الاريكة . سمعت دقات أقدام تقترب في الحديقة . ظهر قادما عبر الباب المفتوح الصحفي رسلان المواردي ، بطوله الفارع وجسده الممتلىء ، وابتسامته العريضة التي لا تزايل وجهه كلما لقيني . ما زال مظهره يكذب حقيقة عمره ، فالشباب والحيوية تطفران منه . لا شيء تغير فيه منذ عرفته قبل ربع قرن . وقتها كان مندوبا قضائيا لجريدة الرائد .. ينقب في المحاكم عن القضايا التي تثير فضول القراء .

ركزت بصري عليه وهو يمرق من الباب ، الذي سبقه في الدخول منه زائراي . فقال وهو يتفحصني في ذهول :

ـ لم ترد تحية المساء !

قلت وانا أستخلص جسدي المكدود من الاريكة التي التصق بها :

ـ آسف ، لم أتنبه لدخولك .

قال بصوته الجهوري ، تشاركه يداه وجسده في التعبير كلما تكلم :

ـ ملامحك توحي بالضيق . والموقف لا تناسبه الهموم . مثلك يليق به الليلة أن يسبح في السعادة ، في المجد ، وحفل التكريم ، والخطب الرنانة ، وجائزة الدولة التقديرية في العدالة .

تاهت نظراتي المبعثرة على صفحة وجهه الممتلىء ، لمتها بسرعة وهو يكرر نداءاته لي :

ـ أستاذ سليمان .. أستاذ سليمان .. ماذا بك ؟

ـ لا شيء .. لا شيء ..

ـ بل أشياء وأشياء .. لم اتعود رؤيتك على هذا الحال ..

ـ صداع .

ـ عودتني أن تسري اليّ بهمومك .. هل تبخل علي ان أشاركك ما أنت فيه ؟..

ـ الموقف مختلف ..

ـ فضفض عن نفسك ..

ـ أخشى أن أصدمك .

ـ كيف ؟

ـ أن تنهدم كل آرائك عني .

ـ معاذ الله ، أنا أومن بحصافتك وعدالتك ونزاهتك .. وقدرتك على النفاذ الى الحقيقة بلا أدنى خطأ ..

ـ لهذا أخشى عليك من هول الصدمة .

ـ ايماني بك قائم على دراسة ، انتهت الى الاقتناع الكامل .

ـ اذن لك ما أردت .

أعدت عليه ما قصصته على سهير .. صبّ على وجهي خلاصة اهتمامه ، فزاد من توتري .. وحالما انتهيت ، حول بصره الى الحديقة ، مستقبلا نسمات تخفف حرارة الجو ، بينما الشجر يخشخش في الحديقة .. تلهفت على رد فعله .. تلفت اليّ وقد انبسط وجهه ، وانفرجت شفتيه ـ لكن عن لا شيء ـ وقال :

ـ هب أن ما رويته لي ليس وليد حساسية مفرطة .. وليكن ما جرى حقيقة ، فما ذنبك انت ؟

ـ ذنبي انني أصدرت حكما بادانة رجل بريء .. كانت الخسائر قتيلا ـ الرجل الذي أعدم ظلما .. وثلاثة مشردين .. زوجته وابنه وابنته ..

ـ طبّقت القانون بحذافيره .. وهذا هو العدل بعينه ..

ـ طبّقته استنادا الى شهود ، ثبت الآن انهم شهود زور .

ـ لست مكلفا بالغوص في أغوار النفوس .

ـ كان عليّ أن أتأكد ..

ـ تلك وظيفة لا يشغلها القضاة .. ثم ان أحدا لم يطعن في عدالتك .

ـ لهذا رشحت لجائزة الدولة في العدالة .

ـ لم يتغير في الامر شيء .

ـ تهدمت الاسباب من أساسها .

ـ لا أحد يرى ذلك سواك .

ـ يكفي هذا ليضاعف شعوري بالذنب، وليجتاحني الدوار .. أشعر انني أتهاوى على حافة منحدر عميق.

ـ أراني مضطرا لجذبك بعيدا حتى لا تزلّ قدماك.

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني ان الامر يبدو كما قدرت سهير هانم .. ما جرى لا يتعدى كونه وليد ارهاصات حدث جلل . هذا اذا لم تكن قد غبت في غفوة قصيرة خلتها اليقظة.

تولاني الوجوم .. أرسلت نظرة عاجلة عبر الباب ، سقطت على الفيلات المغلفة بالظلام ، التي بدت كالاشباح، لا تنزّ بصيصا من نور. هل ارتدت هواجسي ثياب المنطق .. لبثت برهة أسبح بنظراتي في الظلام.. تمنيت لو ان حساباتي كانت خاطئة .. رفعت عيني اليه وهو واقف عن قرب مني يتأملني .. وجدته يقول:

ـ أنسيتني ما جئت من أجله .

ـ تفضل ..

مدّ يده الى حقيبة أوراقه . سحب بضعة أوراق مدها اليّ . تناولتها بلا اهتمام قال :

ـ بروفة المقال الذي أتحدث فيه عن تاريخك كقاض حتى ترشيحك لجائزة الدولة .

ـ أرى أن تؤجل النشر يومين أو ثلاثة ..

ـ النشر الآن ضروري لنهيىء الاذهان للحدث .. وحتى لا يدخل الحلبة في آخر لحظة منافس لك ..

ـ أحتاج ليومين .

ـ أهي أحلام اليقظة ؟!

ـ أطلب مهلة قصيرة حتى أتبين الحقيقة .

ـ وما الذي تنوي عمله ؟

ـ سأستخرج عنوان الشاهدين من ملفات القضية .. سأذهب اليهما بنفسي ، لأعرف الحقيقة كاملة ..

ـ ولِمَ لم تسألهما وهما في زيارتك ؟

ـ أخرسني الذهول .. كان كل ما نطقت به رد فعل للموقف ، تشكل في كلمات متقطعة بلا رابط يجمعها .. وعندما أفقت من المفاجأة ، كانا قد انصرفا، فبدأت التساؤلات تتدفق عليّ كالطوفان .

عاد يشرح لي أهمية التعجيل بالنشر .. لكنني ألححت عليه طالبا التأجيل ، فقبل رجائي على مضض . وانصرف وهو ينصحني بحمام دافىء قبل النوم حتى أصحو في اليوم التالي وقد تخلصت من كوابيسي .

جلست وحدي ، يحدوني قلق ، يفتر هوج حماسي للجائزة ، كشمعة مضيئة اكتسحها تيار هواء اندفع من نافذة فتحت فجأة .. عادت مخاوفي تفترس آمالي .. انسحب قبل أن يتكشف للحاقدين ان أساس منحك الجائزة ، واه .. فيسكبون وقود حقدهم على

ماض خمدت جذوته ، وتشتعل فضيحة تكون خسائرها افدح من ضياع الجائزة ..

سيقولون ان أدلة الادانة ، كانت تعادل أدلة البراءة . وان كفة الادانة رجحت لخلاف في الراي بينك وبين المتهم ، أو لخضوعك لقوى سياسية قادرة قاهرة ، تحولت الى دمية في يدها ، تلقنك الاحكام فتنطقها بلا وازع من ضمير . سينبشون الماضي ، حتى القاع ، ويهيلون التراب على رأسك .

ثقل راسي فارتمى على مسند المقعد . اهتز الوجود كله على اندفاع سيارة مسرعة في الشارع النائم في سكون كالموت ، وانبهر الظلام المسيطر في الخارج ، بضوء اشتعل كالحريق . هل يبزغ شعاع من امل ، يصنع معجزة ؟ ونكتشف ان ما سلبنا راحة البال من صنع خيالنا ؟

(٢)

انطلقت الى حي السيدة زينب أسأل عن شارع بدران حيث يقيم الشاهدان .. عدوي الشوادفي وشهيرة .. عثرت على عنوانهما بصعوبة بعد أن امضيت ساعات انقب في سجلات المحكمة ، بمعاونة موظفين صغيرين نفحتهما جنيهين.. انتهت رحلتي الاستكشافية الى زقاق طويل يتلوى في جوف الحي العتيق ، والبيت المقصود قابع في نهايته .. وقفت اتفحص الجدران الكالحة لهيكل متهالك تتخلله شقوق تحمل شبهة النوافذ .. دلني صبي الى شقة في الطابق الثالث والاخير . انسللت من الباب .. تسلقت السلم حتى كدت أتدحرج ، وقدماي تتعثران في الدرجات المركبة فوق بعضها البعض دون أدنى تناسق أو نظام .. وصلت الى الطابق المنشود .. توقفت برهة .. توثبت للحظة اللقاء .. وضعت يدي على الباب ادق قطعا من زجاج متكسر وورق سميك .

انشق الباب عن امراة في الثلاثين ، استدار راسها كله مع جسدها الممتلىء ليكونا شبه دائرة من اللحم ، سألتها وانا الهث من الجهد الذي بذلته حتى وصلت اليها :

ـ عدوي الشوادفي موجود ؟

تفحصتني بعناية واضحة ، وقالت متسائلة :

ـ من ؟

أعدت عليها الاسم .. ابتسمت وهي ترثي لجهدي الضائع في صعود السلم بلا جدوى وقالت :

ـ لا أحد هنا بهذا الاسم .

ـ لكني واثق من صحة العنوان .

استطردت بنبرة مؤكدة :

ـ لم يسكن هذا البيت من الطابق الاول حتى الاخير ، أحد يحمل هذا الاسم الغريب .

ـ منذ متى وانت تقيمين هنا ؟

دعتني للدخول شفقة بكهولتي التي أهدرت تماسكها ، بضع درجات من سلم عتيق . قبلت الدعوة متحمسا ، وانا أعبر مدخل الباب الضيق .. حرصت وانا جالس على مقعد خشبي يهتز من الافراط في استعماله ، على أن أجيل النظر في الحجرات المفتوحة أبوابها مستطلعا .. ولما شعرت انني استرددت أنفاسي أجابتني :

ـ منذ عشر سنوات تزوجت في هذه الشقة ..

ـ ومعك أحد من عائلتك ؟

ـ لا أحد سوانا أنا وزوجي .

ـ اذن من أبحث عنهما ، ربما أقاما هنا قبلك ..

ـ لم يقطن الزقاق كله أحد يسمى عدوي . فقبل مجيئي هنا ، كنت أقطن مع أسرتي في البيت المجاور . قطبت جبينها وأطلقت نظرة الى لا شيء . وبدت كأنها تتذكر شيئا ، وقالت :

ـ ربما حدث ذلك منذ زمن بعيد قبل أن يولد ابي وأمي ...

ووصلت كلماتها بضحكة رنانة مسترسلة ، ارتج لها جسدها كله شبرا شبرا . وكأنها تلقي دعابة . فابتسمت مجاملة لها ، وشكرت لها ضافتها القسرة ، وانصرفت لا أعرف الى أين .

تمنيت وانا أتلوى في بطون الازقة متوجها الى ميدان السيدة زينب . لو يصادفني عدوي أو شهيرة ليهدأ بالي المكدود .. فالقلق يستهلكني . كلما مضى الوقت ، وأنا لا أعرف ان كان زائراي في تلك الليلة المكثفة بالانفعالات ، حقيقة أم محض خيال ..

(٣)

صدرت صحف الصباح تحمل قائمة الترشيحات متضمنة اسمي .. قلبت بسرعة صفحات الجرائد .. جذب نظري مقال رسلان الموارديي .. قرأته بامعان .. دق جرس التليفون .. جاءني صوت رسلان يعتذر عن انتهاك اتفاقنا مبررا تصرفه بأنه علم في المساء ان لجنة الترشيح اختارتني بصفة نهائية .. ولم يعد هناك موجب لتأجيل المقال .

لم أجد بي رغبة في الجدل .. شعر رسلان باعراضي عن الكلام ، على غير عادتي معه عندما نتحدث بالتليفون ، فنظل نتطرق من موضوع الى موضوع .. بادر هو بانهاء المكالمة قائلا :

ـ سوف أمر عليك اليوم حتى نتكلم بافاضة ..

قطعت المسافة من المكتب الى نافذة الحجرة في تثاقل . تطلعت من النافذة الى شجرة عاقر في بقية حديقة قديمة في الفيلا المقابلة على الطوار الآخر من الشارع . والنسيم يعبث باوراق قليلة تتناثر على فروعها اليتيمة .. تذكرت هذه الحديقة عندما كانت الخضرة تكسوها منذ نحو ثلاثين سنة . عندما سكنت شقتي بعد زواجي من سهير ، التي جمعتني واياها حياة زوجية نعمنا طوالها بالسعادة وراحة البال .. كانت سهير متفتحة العقل ، رحبة الافق ، شاركتني احلامي وآمالي بالرأي الراجح دائما .. وآمنت بعد فترة قصيرة من زواجنا ، انها خير خاتمة لعبث شباب طائش ، جرفته أضواء المدينة في السنوات الاولى للانتقال من القرية الى القاهرة ، فانحدر الى هاوية النزق الذي استأثر بوعيه ..

اهتز كياني ويد سهير تشدني من مجرى الذكريات الذي جرفني معه في اندفاع قاس . تأملت وجهها المتدفق بالحنان . كأني أتبينه لاول مرة . وقد تهدلت خصلة من شعرها الفضي على وجهها المستدير الابيض الذي يكلل جسدها المتوسط الامتلاء فيزيدها جمالا . هبت من النافذة نسمة منعشة . بادلتني ابتسامة هادئة وتمتمت بنبرة متأثرة :

ـ أرى أن نفرح . فليس من يجارينا اليوم سعادتنا .. الصحف جميعها تتحدث عنك وانت لا حتى عن نفسك .. ومها وكمال انتابتهما بعض المخاوف ، عندما علما بما جرى ، لكنني طمأنتهما .

أمسكت بيدها .. تملكتني رغبة دفينة في أن أستنجد بها . أحسست باسترخاء انسل مني فجأة ، وهي تسحب يدها مستأذنة لتعد الغداء .. حل بي احساس بالحزن وخيبة الامل .

متى يبرح الاحباط مفسحا مكانا للامل ؟

القيت بنفسي على مقعد جلدي تحت النافذة .. طرحت رأسي على المسند وأغمضت عيني . محاولا جمع شتات فكري المبعثر أمام قضية عبد الغفار عواد .

* * *

اقتحم عبد الغفار عواد حياتي لاول مرة دون سابق تمهيد .. لكنني نسيته .. وقع النسيان مرتين . بعد النسيان الاول كانت محاكمته فأجبرت على تذكره . ثم كانت المرة الثانية قبل يومين مع تلك الزيارة المفاجئة لشاهدي الزور . يبدو ان نسيان عبد الغفار عواد سيعز مناله هذه المرة . فذكراه تعاود اقتحام حياتي في اصرار غريب حتى بعد موته بثلاثين سنة . وكانت معرفتي به قد بدأت قبل موته بعشر سنوات . وقتها جئت وافدا من قريتي « الراهبين » على الطريق بين المحلة الكبرى والمنصورة ، طالبا للعلم في كلية الحقوق . وعلى محطة القطار المتوجه للقاهرة أعاد أبي الشيخ حافظ الدري ، وصاياه على مسامعي للمرة العاشرة والاخيرة ، وهو يودعني : ـ اهرب بنفسك من عبث الصحاب الذي يهدد الصحة والعقل والدين ـ لا تغادر البيت الا للضرورة القصوى حفاظا على وقت المذاكرة أولى به ـ لا تسرف في الانفاق فنحن لا نملك أن نوفر لك من النقود الا ما يستجيب للضروري ولا شيء غيره ـ أريد أن أزهو بك في القرية وانت وكيل للنائب العام .

حملت الوصايا في عنقي ، لكنه ما لبث أن ناء بها ، أمام اغراء العاصمة الذي لا يقاوم ، وانفلات الزمام بعد طول حرمان وراء أسوار الريف .

كنت أقطن حجرة على سطح بيت قديم في عطفة محرم بجنينة ناميش ، التي تتفرع من شارع جانبي يصب في شارع الترام الممتد من ميدان السيدة زينب حتى المدبح . وفي الشقة التي تعلوها حجرتي ، تفجر اللهب الذي أحرق وصايا الشيخ حافظ . هناك كانت تقيم سونة محمد مع أمها المسنة . ابتدأ احساسي باللهب في خدي اللذين تدفق فيهما الدم واصطبغا بلونه الاحمر ، عندما بادرتني تعرض استعدادها لغسل ثيابي ، وتنظيف حجرتي ، عملا بالقواعد الاخلاقية التي توصي الجار بالجار .

غرس اهتمامها الفائق بي ، بذورا في أعماقي الريفية البكر . فطرحت قبل الاوان . تعلقت بها وتعلقت بي . ذابت الحواجز بيننا تماما حتى عندما نفذت مصاريف الجامعة والكتب ، التي تجاوزت حدود ما تسمح به طاقة الشيخ حافظ . وجدتها تضع في جيب جلبابي وهي في حجرتي ذات ليلة ، عشرة جنيهات صحيحة . وتكررت هباتها ، التي لم تتوجه الا للضروري . وعرفت بالصدفة انها تعمل راقصة في ملهى صغير . لم أكن أملك ما يجعلني أطلب اليها ترك عملها . ومضت علاقتنا دون أن يؤثر ذلك على مذاكرتي ونجاحي بتفوق . فلم أكن لأستطيع أن أسمح بأن تحترق في لهيب ليالي القاهرة . كل وصايا الشيخ حافظ . بقيت وصية حرصت عليها حرصي على حياتي ، أن أعود اليه وأنا وكيل للنائب العام ، ولم تمنعني علاقتي بسونة من اغراق ذهني في المذاكرة . واخذت علاقتي بها تزداد توثقا . بعد وفاة أمها ، حيث صرنا نعيش معا في شقتها .

وذات يوم جاءتني بخبر لطمني بقوة طاغية وقالت وقد انسابت بغزارة دموع من تحت جفنيها :

ـ حاول أن تفهمني . لا تنفعل أو تتصور انني قد تخليت عنك .

تلقيت كلماتها فزعا فاستطردت :

ـ اليوم أجدني مرغمة على أن أقول ما لم أكن اريد أن أقوله .. لا بد أن نفترق .

اخرسني صـــوتها المتهدج . هل حانت النهايـة للسعادة التي كان حبها يصبّها في عقلي وادراكي بغير حساب ؟ والقيت سؤالا يائسا :

ـ ولماذا ؟

ـ سأتزوج ..

لمحت في عينيّ نظرة لا تعطيها الخيار ، فواصلت:

ـ مللت حياة الليل ، وانت تتهيأ لمستقبل أشعر انني لست مهيأة لمشاركتك اياه ..

شعرت من نظراتي اني لا أعاونها على التراجع ، فأجهزت عليّ بالختام قائلة :

ـ شاب ثري اسمه عبد الغفار عواد يتردد كثيرا على الملهى الذي أعمل به . حـــاول التقرب اليّ مرارا وكنت أصده .. اخيرا طلب مني الزواج .. طلبت مهلة لأفكر .. مضى شهر وانا غارقة في دوامة تفكيري .. أخيرا وافقت .. فطلب مني الانتقـــال الى بيته حتى نتزوج هناك ..

واصلت الحياة بقلب أصابته تجربـة الحب الاول بجرح غائر ، ما لبث أن التأم ، من الحـــاح على العقل استغرق مني أعظم الجهد وأنا أحـــاوره ، حتى اقتنع العقل بأن النسيان دواء لا نملك غيـره ، ما دام الزواج بها ليس من العقل في شيء . وانتقلت الى مسكن آخر في حارة تتفرع من شارع الربيع الجيزي بالجيزة .. ضمن جهود النسيان . ورحت أردد عـــلى مسامعي بصوت مسموع وصايا الشيخ حافظ ، حتـى أحاطتني بسياج من الحكمة ، جعلني أوقن اني نسيتها ، وسلمت بأن ما جرى كان نزوة .

وبدأت أستخلص من مرارة المعاناة ، اصرارا على شق طريق لحياتي غير الذي كان .. وما لبث شخصي الذي تعرف على القاهرة للمرة الاولى في عطفة محرم ، أن تلاشى تماما ، مفسحا مكانه لآخر ..

ودارت بي سنوات الدراسة حتى تخرجت بتفوق وعينت وكيلا للنائب العام . وتزوجت سهير التي تمتّ لوالدتي بصلة قرابة .. ثم أصبحت قاضيا ، حتى كان يوم وجدتني فيه أنظر قضية عبد الغفار عواد ، وعبرت الذكريات سماء عقلي .. فاكتشفت ان الجراح زايلتني، لكن سونة محمد لم تكن قد محيت من الذاكرة .

(٤)

كل شيء يجري الى الوراء .. عصفت بي رغبـة جامحة في البحث عن سونة محمد .. الآن ؟!.. وبعد كل هذه السنوات الاربعين ؟!!

أفقت على جسد رسلان المواردي وهو عـلى كثب مني .. لم الحظ دخوله .. ما زالت ملامحه الشـابة تكذب ، فعمره لا تفضحه قسماته . لا شيء فيه قـد غزته الكهولة . هكذا كان منذ عرفته وأنا أبدأ عمـلي كقاض ، تبشر أحكامـــه بعقل قادر على النفاذ الـــى الحقيقة .. تلك كـــانت عباراته التي وصف بها حكم أصدرته في قضية هامة .. وكانت البدايـة لصداقتنا الازليـة ..

أحنى هامته محدقا في عينيّ ، مستطلعا ما وراء نظرة زائغة ، وقال :

ـ يلوح في العين ما لا يطمئن قلبي المعذب ..

أشفقت عليه من قول يصدمـه .. لكني لم أملك لقولي ردا ، فلطمته قائلا :

ـ اتخذت قرارا ، ولن أتراجع عنه ..

واصل صمته واكتفى بالانصات ، فاستطردت :

ـ سأعتذر عن قبول الجائزة ، لو ثبت لي ان مـا رويته لك حقيقة وليس وهما .

قال بنبرات مستسلمة :

ـ لكنك حاولت وفشلت ..

ـ بقي الملاذ الاخير ... زوجته .

ـ لم يسمع أحد بأن له زوجة .

ـ أنا أعرفها .. وأعرف أين أجدها .

ـ أواثق أنت ؟

ـ شعوري لا يكذب ..

ارتمى على المقعد .. تمتم بصوت واهن ، يتسلق حنجرته بصعوبة ، كأنما يحدث نفسه :

ـ يهمني أن تعرف ان تراجعك عـــن الجائـــزة سيقضي عليّ نهائيا . لقد راهنت عليك بكـل ما أملك وما لا أملك .. طبعت كتابي عنك وعن قضاياك الشهيرة ليصدر يوم تسليم الجوائز ..

توقف برهة ليلتقط أنفاسه وقال :

ـ تعرف انني فقير .. ولقد اقترضت مبلغا كبيرا بضمان مرتبي ، وأثاث بيتي ، وحياتي ذاتها ، ثقة في نفاذ الكتاب في يوم صدوره .

مضت هنيهة صمت وجمود ، استجمـع قواه ، ليقف على قدميه ، وقد ارتسمت سنوات عمره الحقيقية على وجهه وكيانه لاول مرة ، منـــذ ربع قرن .. همّ بالذهاب دون تحية ، لكنني استوقفته .. قلت وقـــد خفق قلبي رحمة به :

ـ لا تنس ان الشاهدين لـم يعاودا زيارتي كمـا أخبراني .. ومعنى ذلك انهما يئسا مني وفضّلا التحالف مع أبناء عبد الغفار عواد ؛ لفتح ملف القضية ، طمعـا في نصيب من أمـــوال أبيهما المصادرة اذا حكم لهمـا بردها .

لم ينفرج الصمت حتى عـــن همسة واحدة .. وانسحب رسلان المواردي موليا اياي ظهره :

امتد الخبر كالنار بين أفراد أسرتي الصغيرة .. جاءني رد الفعل عاجلا وأنا مستلق على الاريكة أصوات متداخلة لجدل يدور بين سهير من ناحية ، وكمال ومها من ناحية أخرى .. وانذار من كمال بالهجرة التي كثيرا ما هدد بها أمه .. واسمع تهديده :

ـ اليوم أصبحت في حل من وعدي بالبقاء .. لقد تخليتم عني .. ستتسببون في فسخ خطبتي وضياع نهال مني ، وتحطيم مستقبلي .. أنتم لا تعرفون الرحمة ولا تفكرون الا في أنفسكم . سأرحل الى آخر الدنيا ولن تروا وجهي مرة ثانية .

ارتطم الباب الذي دفعه كمال بعنف وهو ينطلق خارجا من البيت .. وارتطم رأسي بنحيب سهير . وأثرت في نفسي محاولات مها للتخفيف عنها .. وهي تقول :

ـ لا يجب أن ندفع أبي لفعل ما لا يرضاه ، أو يقتنع به .. الاجدر بنا ونحن نراه على حالته تلك ، أن نهون عليه .. لا أن نضاعف في مشاكله .

(٥)

حملتني وهمومي سيارة تاكسي الى ميدان السيدة زينب .. غاص التاكسي وسط الميدان المزدحم بالمارة ، لسعتني العيون .. وانا أشعر انها تلاحق خطواتي .. وكأن المسنين منهم ما زالوا يذكرونني منذ كنت أعيش في هذا الحي أيام الشباب ..

نزلت من التاكسي لأذوب في الزحام .. اجتزت وسط الميدان ، أسترق طريقي الى شوارع جانبية تقودني الى جنينة ناميش بكل ذكرياتها الملتهبة . أسرعت قدماي اللتان تعرفان طريقهما تماما الى عطفة محرم .. تجمدت خطواتي في مواجهة البيت ذي الطوابق الثلاث . طفحت في لحظة قصيرة ذكريات كانت قد غرقت في الذاكرة أربعين سنة .. الذكرى لا تموت .. لكن السنين غلاف يحفظها عن العيون . والسنون غلالة رقيقة ، قادرة على خداع ادراكك ، وايهامك بألا شيء وراءها . وعندما تنفجر ذكرياتك ، أو تلتهب .. تحترق الغلالة ، فتبصر ذكرياتك ، كما تركتها آخر مرة ، غضة لم يتغير فيها شيء .

حتى البيت القديم لم تغير ملامحه السنون .. ما زال كما تركته كالحا .. مطلي بلون الخريف .

جذبت الذكريات قدمي الى الخطوة التالية .. اجتزت بوابة البيت ، أخوض بجسدي ، في رائحة الماضي النفاذة .. صعدت درجات السلم محلقا حتى الطابق الثالث .. توقفت أمام شقتها .. وضعت يدي على الزجاج الداكن اللون القابع خلف قضبان من حديد أسود متآكل .. طرقت الباب .. لم أسمع جوابا .. عاودت الطرق .. تسلل الى سمعي صوت واهن يدعو الطارق للدخول .

دفعت الباب برفق ، فتراجع أمام لمسة يدي .. تقدمت أعبر أربعين سنة في ثانية واحدة ، وقد طوحت بي دوامة عاتية ، وجدتني فريسة لها ، بلا أي مقاومة ، وأنا أخطو معصوب العينين ، الى لحظة ذابت فيها الحدود والفواصل بين الماضي والحاضر ..

تعثر كياني وأنا أصطدم بمرأى امرأة أقعدها الكبر جالسة على فراش خشبي قديم متهالك يكاد يهوي بها . تجمد البصر على وجه واضح الكهولة ، اشتد نحوله ، وبرزت عظام وجنتيه ، ويرسل من عينين غائرتين نظرة غائمة تفتقد نبض الحياة وهمومها .

تسلل البصر الى صورة معلقة على الحائط لسونيا محمد في العشرين من عمرها ، يكذب وجودها أي تسرب للشك في شخصية المرأة .. وأتطلع الى العجوز فأتعرف تحت سحنة شيخوختها الثقيلة على ملامح مألوفة لدي ، كانت تنطق بالفتنة والجمال في أيام خلت ..

بصعوبة شديدة ذكرتها بنفسي .. وعندما تعرفت علي حدجتني بنظرة مسترسلة ، تملأ عينيها الضعيفتين المتساقطة الاهداب .. وتساءلت في دهشة :

ـ ما الذي ذكرك بنا بعد هذا العمر الطويل ؟

رويت لها قصة الشاهدين اللذين جاءا لزيارتي ، وما حدثاني به .. ووجدتني دون وعي مني أرجع الى الماضي أروي لها ظروف القضية .. والحكم الذي أصدرته ايمانا مني بعدالة الجزاء الذي أنزلته بعبد الغفار عواد .. التزاما بالقانون وبناء على شهادة الشهود ..

لم تنطق بكلمة لكني بدأت أقرأ عدم الاكتراث مروجا بالدهشة ، في وجهها المتغضن .. فقطعت استرسالي لأسألها :

ـ هل جاءك الشاهدان ؟

أجابتني بالنفي . شعرت كأن كابوسا ثقيلا أزيح مؤقتا عن أنفاسي .. انطلقت أفكاري الى كمال .. هل يبقى لأمه فلا تحرم منه ؟ وهل تستكمل مها مطالب الزفاف ؟.. لكن بقي شيء .. لقد كشفت لها دون وعي مني عن سر كان يمكن أن يظل طي الكتمان .. والآن ما الذي سيفعله أولادها عندما يعرفون الحقيقة ؟

وبدافع من فضول لم يجد فيما تقوله ما يروي تعطشه .. سألتها :

ـ أين أولادك ؟

ـ أولادي ؟!

ـ أولاد عبد الغفار عواد ..

ـ لم يكن لي منه أولاد ..

ـ لكنك كنت زوجته ..

ـ لم نتزوج .

اندفعت اجابانها تنفرس في احاسيسي وتشعرني بالالم والخيبة . لكني تمالكت وقلت :

ـ تركتك لتتزوجيه !!

ـ لم يصدق وعده ، وكنت قد هجرت الرقص ، وتعودت على العيش كربة بيت ... وحين صدر الحكم باعدامه ، وصودرت كل املاكه . لم اجد بي رغبة في العودة الى عملي السابق . وحتى لو اردت فلم يكن ميسرا لي ان اجد مكانا .. واخترت العودة الى بيتي هنا ..

صمتت برهة ، واتسع فمها عن ابتسامة محدودة، بدت وهي تشق لنفسها طريقا على وجهها وكأنها لم تعرف الابتسام لسنوات مضت ..

كنت وانا اتأملها وانقل عيني بين وجهها وبين الصورة المعلقة على الحائط ، أفيق من حلم ثقيل وقد سرت في داخلي موجة من ارتياح مستمر .

سحبت من جيبي حافظة نقودي . ودسست تحت وسادتها خمسين جنيها ، ووضعت في يدها بطاقة تحمل اسمي وعنواني ، وانا ارجوها ان تتصل بي كلما احتاجت لشيء ، واعدا اياها بمعاودة زيارتها والسؤال عنها .. وودعتها وخرجت الى الشارع .. تستقبلني نسمة جافة رغم القيظ الشديد منعشة .. تخطف وجهي مصابيح الحي القديمة ، ويلاطفني رحيق ذكريات شابة تبعث في القلب النشاط والحيوية ..

انطلقت بي سيارة تاكسي الى المعادي .. وصلت الى البيت وقد بدا مسدل الجفون تحرسه الاشجار من كل جانب كالاشباح ، لكنها ليست موحشة .. عبرت بوابة الحديقة ، فتوقفت ، وانا اتذكر آثار الاقدام التي عثرت عليها عقب تلك الزيارة المثيرة للجدل والضجر . ووجدتني اسأل نفسي :

ـ أيمكن أن يكون الشاهدان قد تابعا خطواتي ، وعرفا انني اتقصى أمر اسرة عبد الغفار وانني لا محالة مستكشف انه لم ينجب أولادا ، ولم يخلف ارملة .. فامتنعا عن الاتصال بي خشية افتضاح امر ابتزازهما لي ؟

القيت على نفسي السؤال ، وواصلت طريقي الى الداخل ، دون ان اشغل فكري بطرح احتمالات الاجابة .. فعقلي الآن يحتاج أن يحيطه الاسترخاء التام .. حتى لا تتفاقم مشاعر الاحباط التي تنتابني كلما اقتحمت صورة الشاهدين محيط تفكيري ..

لكنني اصبحت اكثر شعورا بالارتياح ، بعد تلك الرحلة التي خلصتني من مخاوف كادت تدفعني للتخلي عن حقي في الجائزة .. نعم حقي ! فمن يملك ادعاء العدل المطلق ؟! لاتهيأ الليلة ، لليوم الموعود .. فغدا أتسلم جائزة الدولة التقديرية في العدالة ..

صدر حديثا

روايات وقصص

د. سهيل ادريس

في طبعة جديدة :

الحي اللاتيني

(الطبعة السابعة)

الخندق الغميق

(الطبعة الثالثة)

اصابعنا التي تحترق

(الطبعة الثالثة)

قصص سهيل ادريس

في جزئين :

اقاصيص اولى

اقاصيص ثانية

منشورات دار الآداب